

Talhawi

الأعمال الكاملة لرفاعي طه طاوي

الجزء الثاني

السياسة .. والوطنية .. والثربية

(١٤)
١٩٧٣

دراسة وتحقيق

محمد عمار

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

لondon - شارع مكتوب - مكتبة

ص.ب. ٢٣٠ - تلفون: ٥٨٦٦٠

بيروت - لبنان

كتاب

المرشد الأمين للبنات والبنين

الصحراء ، المرشد الرايم للبيت - حلب ١٩٧٣ . نسخة معاشرة ، الرسماء لـ مملة
الإمارات ، الصناديق الأولى (البيضاء) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،
النشر ، ١٩٧٤ (١٩٧٢)

الفصل الأول

في الكلام على الوطن

الوطن هو عرش الانسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع اسرته ، ومقطع
سرته ، وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه وهواؤه ، ورباه نسيمه ، وحطت عنه
النائم فيه . قال أبو عمرو بن العلاء (١) : مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته
حنينه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى مقدم أخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه .
وال الكريم يحن إلى أحبائه كما يحن الأسد إلى غابته ، ويشتاق الليبي إلى وطنه كما
يشتاق الغريب إلى عطنه ، فلا يؤثر الحر على بلده بلدا ، ولا يصبر عنه أبدا . قال
الشاعر :

بلاد بها نيطت على تهائىي وأول ارض من جلدي ترابها

وقال آخر :

بلد صحت بها الشبيبة والصبا ولبس ثوب العيش وهو جديد
فاذًا تمثل في الضمير رايته وعليه أثواب الشباب تميد

وكان الناس يتشوّدون إلى أوطانهم ، ولا يفهمون العلة في ذلك ، حتى أوضحها
علي بن العباس الرومي (٢) في قصيدة لسلیمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على

(١) زيان بن عمار (٦٨٩ - ٧٧٠ م) استاذ الاصمعي ، عد اماماً للفة والتحو وقراءة القرآن في عصره ،
واليه تنسب احدى القراءات السبع ، كما كان راوية للفة والشعر عن الاعراب ، ويقال انه كان
يضمّر مذهب المخوارج ويعتقد آراءهم .

(٢) ابن الرومي (٨٣٦ - ٨٩٦) شاعر مشهور ، تميز بالفلسف والتثاؤم والنظم ، وشعره جيد نسبياً
رقته وعذوبته ورقى صوره ، ويقال ان ميله المقاومة كانت مع ديانة الفرس قبل الاسلام .

رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل ، اجبره على بيع داره واغتصبه على بعض جدرها ، فقال :

ولي وطن آليت ان لا أبيعه
عمرت به شرج الشباب ونعمت
وحبب أوطن الرجال اليهم
اذا ذكرت لهم ذكرتهم
فقد الفتني النفس حتى كأنه
وأن لا ارى غيري له الدهر مالكا
بصحبة قوم أصبحوا في ظلaka
مارب قضاها الشباب هنالكا
عهود الصبا فيها محناها لذلك
لها جسد ان يان غوره هالكا

ولا يبعد العاقل عن الوطن الا طلب العلى اذا لم يمكن فيه ، قال صاحب [لامية العجم (١)] :

ان العلى حدثني وهي صادقة
لو ان في شرف المأوى بلوغ منى
فيما تحدث ان العز في النقل
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال من تحرير في الحل والارتحال :

وبقيت بين عزيتين كلاهما
هم يشوفني الى طلب العلى
امضى وانفذ من شباء سنان
وهو يشوقني الى الاوطان

وقد جرت العادة ان البعيد عن الوطن . الذي قضى فيه جزءا من شبابه ، يتשוק اليه ، سواء كان من اهل البدو او من اهل الحضر ، فأهل البدو يتأسفون على فراق نجد ، ويحنون اليها حنين المؤسفين على « غوطة دمشق » ، وقصور مدينة السلام ، وتحف الجزيرة ، ومستشرف « الخورنق » ، « وجوسق » « سر من راي » ، من كل من بعد منهم عن بلده ، وطال مقامهم بغيره ، فإذا أبدينا بعض محسن ام الدنيا والنعمة ، التي هي كثابة الله في ارضه ، ظهر لنا انها تعد اول وطن من اوطان الدنيا يستحق ان تميل اليه قلوب بيته ، وانه احق ان تحن اليه نفوس مفارقيه من ذويه .

[تعلق المصريين بوطنهما]

ولا يشك احد ان مصر وطن شريف ، ان لم نقل انها اشرف الامكنة ، فهي ارض الشرف والمجد في القديم وال الحديث ، وكم ورد في فضلها من آيات بينات وآثار

(١) هو الشاعر : الطغراطي ، الحسين بن علي (١٠٦ - ١١٢١ م) ، والى جانب الشعر كان عالما بالكيمياء ، ولقد مات مقتولا بتهمة الالحاد .

وحيث ، فما كأنها الا صورة جنة الخلد منقوشة في عرض الارض بيد الحكمة الالهية التي جمعت محاسن الدنيا فيها ، حتى تقاد ان تكون حصرتها في ارجانها ونواحيها . بلدة مشوقة السكنى ، رحبة المثلوى ، حصبة ها جوهر ، وترابها مسک انفر ، يومها غداة ، وليلها سحر ، وطعمها هنيء ، وثراها مرئ ، واسعة الرقعة ، طيبة البقعة ، كان محاسن الدنيا عليها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة ، واسطة البلاد ودرتها ، ووجهها وغرتها . بلدكم خرج منه من كبار ملوك وسلطانين ، وحكماء واساطين ، وكم نبعثت منه عيون علوم ، وانطوى به من البلاد سحائب غيوم ، فمن ذا يضاهي مصر في كمال الافتخار ، او يباريها في الجمال والاعتبار ، امته اول امة في المجد وعلو الهمة :

بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن
ـ كأولهم في الجاهلية اولـ
ـ هم القوم ان قالوا اصحابوا وان دعواـ
ـ أجابوا وان اعطوا اطابوا واجزواـ

موصوفة عند الجميع بالشجاعة والحماسة والكياسة والرئاسة ، فضلا عن الذكاء والقطنة ولطافة العوائد والأخلاق ، مما سارت به الركبان بسيرتهم الحميدة في سائر الأفاق ، فلها الحق في ان يحترمها جميع الامم والملل ، وملوك الدنيا والدول ، فكم اقتبسوا منها في الأزمان الخالية انوار العلوم والمعارف التي طوقت اجياد الدنيا وصارت بها في الدرجة العالية .

ولم تزل الى الان مخال كل زمان ، كما لم تزل محاسنها زينة لكل مكان ، حظها من التمدن عظيم ، ورونق تاجها در نظيم ، فهي الكناة ذات المنعة والمكانة ، التي قيل فيها :

منها وان بعد العدو سهام
باق ، ولم تهرم لها اهرام
ـ وهوؤها بردـ به وسلمـ
ـ ولـهـ ايـادـ فيـ الـوقـودـ جـسـامـ
ـ بـالـفـشـلـاتـ كـأـنـهـاـ اـعـلامـ
ـ ١١ـ تـسـيرـ بـالـرـيـاحـ غـمـامـ
ـ وـكـذـاـ لـيـالـىـ الـدـهـرـ وـالـيـامـ
ـ الدـنـيـاـ وـلـمـ يـبعـدـ عـلـيـهـ مـرـامـ

ـ وـكـانـةـ اللـهـ التـيـ كـمـ فـوقـتـ
ـ وـقـدـيـمـةـ ،ـ شـابـ الرـمـانـ ،ـ وـحـسـنـهاـ
ـ وـاـذـاـ سـطـاـ حـرـ الـهـجـيرـ فـمـأـهـاـ
ـ وـغـنـيـةـ بـالـنـيلـ عـنـ نـيلـ الـحـيـاـ
ـ وـعـنـ الـمـطـيـ المـثـقلـاتـ وـحـلـمـهاـ
ـ مـنـ كـلـ باـسـطـةـ الـجـنـاحـ كـأـنـهـاـ
ـ تـسـرـيـ بـمـنـ فـيـهاـ وـهـمـ فيـ غـفـلـةـ
ـ وـعـزـيزـ مـصـرـ عـلـىـ السـرـيرـ تـهـابـهـ

يقال : ان من خصائص مصر كثرة الدنانير بها ، وأن من دخل بها ولم يستفن فلا اغناه الله ، ولا عبرة بما قاله بعضهم في تفضيل بغداد عليهما :

ـ يـقـولـونـ :ـ مـصـرـ اـخـصـ الـارـضـ كـلـهاـ
ـ تـعـاقـبـهاـ الـاـيـامـ بـالـعـسـرـ وـالـيـسرـ
ـ وـلـمـ تـخـلـ أـرـضـ مـنـ مـحـبـ وـمـنـ مـطـريـ

وَالْأَفَيْنُ الْخَصْبُ عَنْ مَعْشِرِ بَهَا
وَمَا خَيْرُ قَوْمٍ تَجْدِبُ الْأَرْضَ عِنْهُمْ
إِذَا بَشَّرُوا بِالْغَيْثِ رَيْعَتْ قَلْوَبُهُمْ

يُقاسون أنواع المذاب من الفقر بما فيه خصب العالمين من القطر كما يُعرف الظلماء سرب القطا الكدرى

وقال بعضهم : من خصائص مصر ان المصري لا يرى مستوطنا في غيرها الا في الذل ، وكانت تحية ملوكها وعظمائها : ايها العزيز ، كما نطق به القرآن الشريف وبالجملة فالبلاد تدح وتذم ، فقد كان يقال : الدنيا « بصرة » ولا مثلك يا بغداد . وكان الحاج يقول : « الكوفة » جارية جميلة لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها . ونحن نقول : مصر جارية عروس محلة بالمال والجمال ، فهي تخطب لمالها وجمالها . فهي الان مجمع التالد والطارف ، ومعدن الحاسن واللطائف ، وبها منافع ارباب النهيات في كل فن بادية ، وهي حاضرة افريقة وما عداها بادية .

قال بعض من سكن سوهاها ، وهو يهوى سكناها : فآها على الديار المصرية وأوقاتها ، وسقيا لمعاهد أنسها لنفسها ، ولذاتها لذاتها ، ورعايا لتلك المنازل التي لا تخرج الاقمار عن هالاتها ، وحفظا لتلك الوجوه التي للشمس أضواء على جبهاتها ، وشكرا للنفوس التي المجد يغليها على شواتها .

ذكر الانام لنا فكان قصيدة أنت البديع الفرد من أبياته

شیر [شیر]

قضيت أطيب ليلتي منعما
في ليلة قمر السماء مغازلي

فكيف وهي على ممر الليالي والايام منبع السعادة ، ووراثة دار السلام ، وزينة بلاد الاسلام ، ملكها عزيز ، واهلها اهل كرامة وتعزيز ، محبوبة من ابناء الاوطان ، متمسكة بحديث : « حب الوطن من اليمان ». وهي ان شاء الله تعالى في امان واطمئنان من حوادث الزمان ، حيث ان عزيزها :

أقام منار الحق حتى اهتدت به
وعادت على الدنيا عوائد فضله

الفصل الثاني

(في إبناء الوطن وما يجب عليهم)

قد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن إبناء الوطن دائماً متهددون في اللسان، وفي الدخول تحت استرقاع ملك واحد ، والانقياد إلى شريعة واحدة وسياسة واحدة، وهذا مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى إنما أعدهم للتعاون على اصلاح وطنهم ، وإن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة ، فكان الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ، ومحل مرباهم ، فليكن أيضاً محل للسعادة المشتركة بينهم ، فلا ينبغي أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة بآراء مختلفة ، لما يتربى على ذلك من التشاحن والتحاسد والتباغض وعدم امنية الوطن ، فلا يتمنى بعضهم سعادة نفسه وشقاوة غيره ، لا سيما وأن الشريعة والسياسة سوت بينهم ، وأوجبت عليهم أن يكونوا على قلب رجل واحد ، وإن لا يعتقدوا لهم عدوا إلا من يوقع بينهم الفشل بخداعه ، ليختل نظام ملتهم ، وينحل انتظام سلتهم ، فهذا هو العدو المبين ، الذي لا يجب أن يكون أهل الوطن على وطنهم آمنين ولا بحريرتهم متمتعين .

[حقوق المواطن]

ثم إن ابن الوطن المتصل به ، أو التابع إليه ، الذي توطن به واتخذه وطناً ، ينسب إليه ، تارة إلى اسمه فيقال : مصري ، مثلاً ، أو إلى الأهل فيقال : أهلي ، أو إلى الوطن فيقال : وطني ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحقوق بلده ، وأعظم هذه الحقوق الحرية التابعة في الجمعية التنسية ، ولا يتصف الوطني بوصف الحرية إلا إذا كان منقاداً لقانون الوطن ومعيناً على اجرائه ، فانقياده لاصول بلده يستلزم ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية ، والتزمي بالزمايا البلدية ، فهو لهذا المعنى هو وطني وبلدي ، يعني أنه معدود عضواً من أعضاء المدينة ، فهو لها بمنزلة أحد أعضاء

البدن ، وهذه أعظم المزايا عند الأمم المتقدمة . وقد كان أهالي غالب الأمم محروميين من تلك المزية ، التي هي من أعظم المذاهب ، وكان ذلك في الأزمان التي كانت فيها اوامر ولاة الأمور جارية على هوى أنفسهم ، يفعلون ما شاؤه ، وقد كانت الأهالي أذ ذاك لا مدخل لها في معارضة حكامهم ، ولا محاماة لهم عن أحكام الشريعة ، فكان لا يمكنهم أن يخبروا ملوكهم بما يرونـه غير موافق ، أو يكتبوا شيئاً فيما يختص السياسات والتدابير ، ولا يبـدو آراءـهم في شيء ، فكانوا كالإجائب في أمور الحكومة ، وكانوا لا يتقدـون من الوظائف والمناصـب إلا بما هو دون استحقاقـهم ، والآن تغيرت الأفـكار ، وزالت عن ابناء الوطن هذه الإـخارـ ، فالآن ساغ للوطنيـ الحـقـيـقيـ أن يـمـلا قـلـبه بـحـبـ وـطـنـهـ لـأـنـهـ صـارـ عـضـوـاـ مـنـ اـعـصـائـهـ .

[واجبات المواطن]

فالوطنيـ المـلـصـ فيـ حـبـ الـوـطـنـ يـغـدـيـ وـطـنـهـ بـجـمـيعـ مـنـافـعـ نـفـسـهـ ، وـيـخـدمـ بـذـلـ جـمـيعـ مـاـ يـمـلـكـ ، وـيـفـدـيهـ بـرـوحـهـ ، وـيـدـفعـ عـنـهـ كـلـ مـنـ تـعرـضـ لـهـ بـضـرـرـ كـمـاـ يـدـفعـ الـوـالـدـ عـنـ وـلـدـهـ التـشـرـ ، فـيـنـبـغـيـ أـنـ تـكـوـنـ نـيـةـ اـبـنـاءـ الـوـطـنـ دـائـمـاـ مـتـوجـهـ فـيـ حـقـ وـطـنـهـ إـلـىـ الـفـضـيـلـةـ وـالـشـرـفـ ، وـلـاـ يـرـتـكـبـونـ شـيـئـاـ مـاـ يـخـلـ بـحـقـوقـ اـوـطـانـهـ وـاـخـوـانـهـ ، يـكـوـنـ مـيـلـهـ إـلـىـ مـاـ فـيـهـ النـفـعـ وـالـصـلـاحـ ، كـمـاـ إـنـ الـوـطـنـ نـفـسـهـ يـحـمـيـ عـنـ اـبـنـهـ جـمـيعـ مـاـ يـضـرـهـ ، لـمـ فـيـهـ مـنـ هـذـهـ الصـفـاتـ ، فـحـبـ الـوـطـنـ وـجـلـ الـصـالـحـ الـعـامـةـ لـلـاخـوـانـ وـتـجـعـلـ كـلـ اـنـسـانـ مـنـهـ مـهـبـوـبـاـ لـلـآخـرـينـ ، فـمـاـ أـسـعـدـ اـنـسـانـ الـذـيـ يـمـيلـ بـطـبـعـهـ لـابـعـادـ التـشـرـ عـنـ وـطـنـهـ وـلـوـ باـضـرـارـ نـفـسـهـ .

فصـفةـ الـوطـنـيـةـ لـاـ تـسـتـدـعـيـ فـقـطـ أـنـ يـطـلـبـ اـنـسـانـ حـقـوقـ الـواـجـبـةـ لـهـ عـلـىـ الـوـطـنـ ، بلـ يـجـبـ عـلـيـهـ أـيـضاـ أـنـ يـؤـديـ الـحـقـوقـ الـتـيـ لـلـوـطـنـ عـلـيـهـ ، فـاـذـاـ لـمـ يـوـفـ اـحـدـ مـنـ اـبـنـاءـ الـوـطـنـ بـحـقـوقـ وـطـنـهـ ضـاعـتـ حـقـوقـ الـمـدـنـيـةـ الـتـيـ يـسـتـحـقـهـاـ عـلـىـ وـطـنـهـ .

وـقـدـ كـانـ الـرـوـمـانـيـوـنـ فـيـ قـدـيمـ الزـمـانـ يـجـبـرـونـ الـوـطـنـيـ الـذـيـ بـلـغـ مـنـ الـعـمـرـعـشـرـينـ سـنـةـ أـنـ يـحـلـ فـيـنـاـ أـنـهـ يـحـامـيـ عـنـ وـطـنـهـ وـحـكـومـتـهـ ، غـيـاـخـذـونـ عـلـيـهـ عـهـداـ بـذـلـكـ ، وـصـيـفـةـ الـيـمـينـ : « أـشـهـدـ اللـهـ عـلـىـ أـنـيـ أـحـمـلـ سـلاحـ الشـرـفـ لـامـانـعـ بـهـ عـنـ وـطـنـيـ وـأـهـلـهـ كـلـمـاـ لـاحـتـ فـرـصـةـ اـتـمـكـنـ فـيـهـ مـنـ مـسـاعـدـتـهـ ، وـأـشـهـدـ اللـهـ عـلـىـ أـنـيـ لـحـمـاـيـةـ الـوـطـنـ وـالـدـيـنـ أـحـارـبـ مـنـفـرـداـ اوـ مـعـ الـجـيـشـ ، وـأـشـهـدـ اللـهـ عـلـىـ أـنـيـ لـاـ اـكـدرـ صـفـوـ وـطـنـيـ

والأخونه ولا أغدر به ، وأني اركب البحار أيا ما لزم ذلك في جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة ، وعلى أني أحافظ على أمثال القوانين والعادات المقبولة في بلاي ، الموجودة في الحال وما يتجدد منها ، وأشهد الله أن لا أتحمل احدا يجرأ أن يخل بها وينقص انتظامها » . انتهى .

فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبّثة بحب وطنها ، ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها ، ولما اسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة ، وفسد حالها ، وانحل عقد نظامها بتعذر اختلاف أمرائها وتعدد حكامها ، فبعد أن كانت حكومة بقيصرة واحدة انقسمت في الشرق والمغرب بين قيصرين ، قيصر روما ، وقيصر القسطنطينية ، وكانت الشوكة لباع طويل فصار أمرها إلى باعين قصرين ، فـأـلـأـمـرـهـاـ فـيـ جـمـيـعـ الـحـرـوبـ إـلـىـ الـانـهـازـمـ ، وـرـجـعـتـ بـعـدـ كـمـالـ الـوـجـودـ إـلـىـ الـانـعدـامـ ، وهـكـذـاـ شـأـنـ الـمـلـةـ الـمـخـلـةـ الـحـكـوـمـةـ ، وـالـدـوـلـةـ الـفـيـ الـنـظـوـمـةـ .

الفصل الخامس

في تمدن الوطن

تمدن الوطن عبارة عن تحصيل ما يلزم لأهل العمران من الأدوات الازمة لتحسين أحوالهم حسًّا ومعنىًّا، وهو موقانهم في تحسين الأخلاق والعادات، وكمال التربية، وحملهم على الميل إلى الصفات الحميدة، واستجاماع الكمالات المدنية، والترقي في الرفاهية. وهذا التمدن بالنسبة للامة المقيمة في الوطن، وتخلف افراد هذه الامة المتنامية بالنسبة للترقية والتحسين، فالتمدن بالنسبة للأمم وللأفراد مقول بالشكك، ولهذا تجد الملكة اعظم تقدماً في التمدن من الاخرى، وكذلك زيد من الناس ارقى تمتنا من عمرو، بالنسبة لتحسين حاله ومنزله.

وصدق التمدن التخشى، وهو الخلو عن الترفه في درجة المعيشة. ولا شك ان رسالة الرسل بالشريائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يعتقد به ويبلقتف اليه، وان الذي جاء به الاسلام من الاصول والاحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الاطلاق، واسعنت انوار الهدى في سائر الافق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انتيكم بشريعة حنيفة بيضاء، لم يأت بها نبى قبلى، ولو كان اخى موسى وسائى الانبياء في زمئى لم يسمعكم لا اتباع شريعيتى». [ومن زاول علم اصول الفقه، وفتق ما اشتغل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات المقلية التي وضلت عقول اهالى باقى الام المتنمية بها، وجعلوها اساساً لوضع قوانين تمدنهم واحكامهم، كل ان تخرج عن تلك الاصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها المعامالت، فما يسمى عندنا بعلم اصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية او الفوقيتين الفطرية، وهي عبارة عن قواعد عقلية، تحسينا وتقبلاها، تستثنون عليها احكامهم المبنية، وما تستحبه بذروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق الاصحاح المبنية، وما تسميه بالعدل والاخسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، فمهما اهل الاسلام من محنة الدين والتولع بمحاباته، مما يفضلون به عن ذاتهم في القواع والنجاعة، يسمونه محنة الوطن. على انه عندنا عشر الاسلام

حب الوطن شعراً من شعب الایمان ، وحماية الدين مجمع الاركان . فكل مملكة
اسلامية وطن لم يجتمع من نفتها من الاسلام ، هي جامدة للدين والوطنية ، محظياتها
واحية على بنائها من هاتين الحبيتين ، وأنما جرت العادة بالاقتصار على الدين لقوة
اهميته ، مع ارادة الوطن ، وقد تكون الغمرة على الوطن الفصوصي محفوظة مجرد
الجنسية والمنزلية كالقبسي والمياني والمصري والشامي ، مع ان الوطن يستوی
فيه النوع الانساني ، فنجد الحزبين ولو اختطف البعض مع الآخر يتحذآن بالنسبة
للاجنبي لحماية الوطن او الدين او النوع .

الأخي لحماية الوطن والذكاء والعلم والمعادنة ، ولذلك
وفوائد التمدن كثيرة ، وعليها مدار جميع العلوم المعاشرة والمعادية ، قال بعضهم : كلما اتسع نطاق تمدن ممالك الدنيا خفت الحروب ، وقلت العداوة ، وتلطفت الفتوحات ، وندرت التقلبات والتغلبات ، حتى تتقطع بالكلية ، وينهي الاستبعاد والاسترقاء بغير حق ، ويزول الفقر والمسكرة .

أسباب التمدن

ثم ان من اسباب التمدن في الدنيا : التسك بالشرع ، وممارسة العلوم والمعارف ، وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة ، واستكشاف البلاد التي تعمين على ذلك ، واختراع الالات والادوات من كل مَا يسهل او يقرب الطرق التمدنية يليجـانـاد الوسائل والوسائل ؟ فمـا اعـان عـلـى التعليم والتعلم ، الذي هو ركن من اركان التمدن ، المطبع الاهليه التقال ان اول من اخترع طبع الكتب في اوروبا امة الالمان (١) ، وانتقلت منهم في بلاد الصين ، وكان اهل فرنسا اذ ذاك من عمـاء الجهل في بـحـر عـمـيق ، ومن عـوـاـيـة التخشن في مكان سـاحـيق ، فاعتقدوا ان الطباعـون سـاحـرة ، وهـمـوا بـقـتـلـهم ، فـانـقـذـهـمـ لـويـزـ الحـادـيـ عـشـرـ مـلـكـ فـرـانـسـاـ ، وجـعـلـ المـطـابـعـ تحتـ حـماـيـةـ شـمـمـ انتـقـلـتـ الىـ باـقـيـ بلـادـ اـورـوـباـ وـمـنـهاـ الىـ بلـادـ الشـرـقـ ومـصـرـ . / سـرـدـ

جريدة الرأي والتعبير

وَمَا أَعْنَى سُعَةِ دَائِرَةِ الْمُتَّمَدِ فِي بَلَادِ الدِّينِ تَرْحِيمُ جَمِيعِ الْمُلُوكِ لِلْعِلَماءِ
وَاصْحَابِ الْمَعْرِفَةِ فِي تَدوِينِ الْكِتبِ الشُّرُعِيَّةِ وَالْحُكْمَيَّةِ وَالْإِلَيْسَيَّةِ وَالْسِّيَاسَيَّةِ ؟ ثُمَّ

(١) ومختبر أدوات الطباعة هذه هو الألماني يوهان جوشتريج - ١٣٩٧ م - ١٤٦٨ هـ، فقد أخزع الله سنة ١٤٣٦ أو سنة ١٤٣٧ م، وكان أول كتاب طبعة بها هو «إنجيل مازارين».

توسيع في حرية ذلك بشره طبعاً وتمثيلاً ، وخصوصاً جرائد الوقائع لاسيما في بلاد أوروبا بقانون حرية ابداء الآراء ، بشرط عدم ما يوجب الاختلال في الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغير تغريب ولا شطط .

ومن اعظم معين على التمدن حرية الملاحة والسياحة في البر والبحر ، فانها عادت على جميع ممالك الدنيا بالثروة والفن ، والاطلاع على عجائب الدنيا . وكانت السياحة في الاحقاب السالفة لعرب الاسلام لاستكشاف البلدان وادخال اهلها في دين خير الانام ، فاستكشفوا من البرور والبحور ما لا يحصى ، ومدنوا من اهل جزائر البحر ^{المحيط} وسواحله ما لا يستقصى ، ثم حذا حذوهم الحذاق والالباء من اهالي اوروبا ^{لما} نظفروا باستكشاف دنيا جديدة لم تكن معلومة للقادمين ، واعظم ما اعان على الملاحة ، وهي السفر في البحار ، اختراع « البوصلة » التي هي « بيت الاية » . قيل ان اول مخترع لها عرب الاسلام الذين سافروا في جميع اقطار البحر المحيط لنشر الاسلام عند الامم المتبريرة في جميع الاقطارات ، وقيل ان المخترع لبيت الاية انما هم ا الأوروبيون ، والجمع بين القولين ان يقال : ان الاختراع لهذه الآلة انما كان للعرب ، وأن الأوروبيين انما اجهتهدا في تكميلها وتحسينها وتكريرها . وهي عبارة عن علبة ، مثبت فيها ابرة حديد مسقية بالغانطيس ، تتحرك دائماً صوب القطب الشمالي ، ولا تنحرف عنه الا انحرافاً يسيراً ، ويرسم فيها الجهات الاربع ، وهي الشمال والجنوب والشرق والغرب ، لمعرفة مهاب الرياح الاربع الاصلية والريح النكباء ، فبهذا يهتدى بها الريانون في البحر الى صوب مقصودهم . ثم ان اغلب ممالك اوروبا ارباب قوة بحرية ، الا ان اعظم الممالك قوة بحرية مملكة الانكلترا ، ثم مملكة فرنسا وللدولة العلية في القوة البحرية ميسرة قوية ، ومبينات لا نظير لموقعها في الحصانة والامنية وللحكومة المصرية بوغازات ذات اهمية يصح ان تكون اولية وذات اولوية ، فكل من البحرين الابيض والاحمر لها مساعد ، وسائل ثغورها مراكز تجارة لكل صادر ووارد .

وقال ارباب السياسات : انه ينبغي لاي مملكة من الممالك ان تكون قوتها البحرية على النسبة من قوتها البرية ، وعلى حسب عظم ملكها ، وان انفع شيء في تقديم القوة البحرية في مملكة من الممالك ان يكون بيرقها (١) مرخص السير في البحار محترماً في جميع اجزاء بحار الدنيا ، ومن فضائل القوة البحرية انها تعين على تقدم الزراعة والتجارة والصناعة ، لاسيما في المستعمرات الخارجية عن المملكة ، ولاجل كثير السفن والمعماريات البحرية يجب على الامة المتشبطة بذلك ان تكثر من غرس

(١) البيق : العلم والراية التي تحمل شعار الدولة .

الغابات والاورمانات (١) ليكثر عندها الخشب اللائق لابناء السفن ، بحيث تتمكن الملكة البحرية من ان تنشيء ترسانات للسفن في بلادها ، فان تعذر عليها ذلك وجب ان تحصل على السفن اللاحقة بها بالشراء من البلاد الاجنبية بقدر ما يفي بحاجتها ، لأن القوة البحرية هي منبع غزير لتوسيع دائرة التمدن الذي مبناه على العدل والحرية العمومية .

(١) من معاني « الارم » بفتح المهمزة : اصل الشجر – انظر هذه المادة في [السان العرب] – فاعملها مأخوذة منها ، وفي مصر « حدائق الورمان » في محافظة الجيزة .

الفصل السادس

في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية

الحرية من حيث هي : رخصة (١) العمل المباح ، من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محظور . فحقوق جميع أهالي المملكة المتقدمة ترجع إلى الحرية ، فتتصف المملكة بالنسبة للهيئة الاجتماعية بأنها مملكة متسللة على حريتها ، ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر ، يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ومن جهة إلى جهة ، بدون مضائق مضائق ولا اكراه مكره ، وإن يتصرف كما يشاء في نفسه ووقته وشغله، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة . ومن حقوق الحرية الأهلية أن لا يجرؤ الإنسان على أن ينفي من بلده ، أو يعاقب فيها ، إلا بحكم شرعي أو سياسي مطابق لأصول مملكته ، وإن لا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء ، ولا يحجر عليه ، إلا بأحكام بلده ، وإن لا يكتم رأيه في شيء ، بشرط أن لا يخل ما يقوله أو يكتب بقوانين بلده .

[أقسام الحرية]

وتنقسم الحرية إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية .

(١) مصطلح « رخصة » مستعمل هنا بمعنى حرية ، وهو بهذا المعنى في كل آثار المطهطاوي المفكرة . والرخصة في الأصل : الآذن في الشيء بعد النهي عنه ، أي الإباحة واعطاء الحرية ، وتأتي بمعنى التخفيف ضد التشديد ، وفي هذا المعنى « والله يحب أن يؤخذ برخصة كما يحب أن يؤخذ بعازمه » . وقد جاءت بمعنى الإباحة في قول الشاعر :

— فاملها —

نفالي اللحم للأضياف نينا ونرخصه اذا نفع القبور .

انظر هذه المادة في [لسان العرب] . و (أساس البلاغة) للزمخري .

فالحرية الطبيعية : هي التي خلقت مع الانسان ، وانطبع عليها ، فلا طاقة لقوتها البشرية على دفعها بدون ان يعد دافعها ظالما ، كالاكل والشرب والمشي مما يشترك فيه جميع الافراد ولا يستغفون عنه ، مما لا ضرر فيه على الانسان نفسه ولا على اخوانه ، فلا يجوز مثلا التخمة ، ولا اكل السموم ، ولا اكل طعام الفير بدون اذنه .

والحرية السلوكية : التي هي حسن السلوك ومكارم الاخلاق ، هي الوصف اللازم لكل فرد من افراد الجمعية ، المستنجد من حكم العقل ، بما تقتضيه ذمة الانسان وتطمئن اليه نفسه في سلوكه في نفسه وحسن اخلاقه في معاملة غيره .

والحرية الدينية : هي حرية العقيدة والرأي والمذهب ، بشرط ان لا تخرج عن اصل الدين ، كآراء الاشاعرة (١) والمتريدية (٢) في العقائد ، وآراء ارباب المذاهب المجتمعين في الفروع ، فان الانسان يؤمن على ان يتبع مذهبا من هذه المذاهب يتمسك به في العبادة ، ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية ، وآراء ارباب الادارات الملكية في اجراء اصولهم وقوانينهم واحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم ، فان ملوك المالك وزرائهم مرخصون في طرق الاجراءات السياسية بأوجه مختلفة ترجع الى مرجع واحد وهو حسن السياسة والعدل . **والحرية المدنية** : هي حقوق العباد والاهالي الموجدين في مدينة بعضهم على بعض ، فكان الهيئة الاجتماعية المؤلفة من اهالي المملكة تضامنت وتوطأت على اداء حقوق بعضهم البعض ، وان كل فرد من افرادهم ضمن للباقين ان يساعدهم على فعلهم كل شيء لا يخالف شريعة البلاد ، وان لا يعارضوه ، وان ينكروا جميعا على من يعارضه في اجراء حريته ، بشرط ان لا يتعدى حدود الاحكام .

والحرية السياسية : اي الدولة ، هي تأمين الدولة لكل احد من اهاليها على املاكه الشرعية المرعية ، واجراء حريته الطبيعية بدون ان تتعدى عليه في شيء منها ، فبهذا يباح لكل فرد ان يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية ، فكان الحكومة بهذا ضمنت للانسان أن يسعد فيها ما دام مجتنبا لاضرار اخوانه .

(١) نسبة الى ابي الحسن الاشعري (٨٧٣ - ٩٤١ م) ، كان معتزليا ثم خرج على مذهب المعتزلة ليقلم مذهبها وسطا بين الجبرية والمعلولة على اساس نظرية الكسب ، ولذلك يعد مذهب الجبرية المتطرفين بالقياس الى مذهب الجبرية الخلص اتباع الجهم بن صفوان . انظر تقديمنا [لرسائل العدل والتوحيد] .

(٢) نسبة الى ابي منصور المتريدي (المتوفى سنة ٩٤٤ م) . وهو صاحب مذهب كلامي بين الاشعرية والمعلولة .

[علاقة الحرية بالسعادة]

فالحرية ، بهذه المعاني ، هي الوسيلة العظمى في اسعاد اهالى المالك ، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدليّة كانت واسطة عظمى في راحة الاهالى واسعادهم في بلادهم ، وكانت سببا في خيّم لاوطانهم . وبالجملة فحرية اهالى كل مملكة منحصرة في كونهم لهم الحق في ان يفعلوا المأذون شرعا ، وان لا يكرهوا على فعل المحظور في مملكتهم ، وكل عضو من اعضاء جمعية المملكة يرخص له ان يتمتع بجميع مباحثات الملكة ، فالتضييق عليه فيما يحوز له فعله ، بدون وجه مرعي ، يعد حرمانا له من حقه ، فمن منه من ذلك ، بدون وجه ، سلب منه حق تتمتعه المباح ، وبهذا كان متعديا على حقوقه ، ومخالفا لاحكام وطنه . ومتى كانت حرية الاهالى مصحوبة بعدل الملوك ، الذين يمزجون الدين بالخشونة للإهابة ، فلا يخسى منها على الدولة ، بل يكون التتعادل في الحقين ، ويسعد الرئيس والرؤس .

[القزان الحر نحو وطنه]

وحيث ان الحرية منطبقة في قلب الانسان من اصل الفطرة ، واقتضت الحكمة الالهية عدم تحقيه وذله ، وكرمنته على جميع من عداه ، فينبغي ان يصرف حريته في اكرام وطنه وآخوانه ورئيس دولته ، فإذا كان الانسان يكلف بنفع وطنه فلا يبعد تكليف الحكومة له بجهاد الاعداء او اعانته الحكومة على مصارفها من التعدي على حقوقه ، فان هذا من واجباته لوطنه حيث ان العدو الذي يتعدى بالاغارة على بلد من البلاد يجب على اهلها قتاله وصدّه عنها ، وما ذاك في الحقيقة الاحمائية للحرية ، فمن محسن حرية الامة أنها تفرح ايضا بحرية غيرها من الامم ، وتتأذى من استعباد امم المالك الذين لا حرية عندهم .

واعظم حرية في المملكة المتقدمة حرية الفلاحة والتجارة والصناعة ، فالترخيص فيها من اصول فن الادارة الملكية ، فقد ثبت بالادلة والبراهين ان هذه الحرية من اعظم المنافع العمومية ، وان النفوذ مائة اليها من القرون السالفة التي تقدم فيها التمدن الى هذا العصر ، وان اصعب ما على العاقل الذي يفهم منافع هذه الفنون ان يرى تضييق دائرتها ، ولكن قد يكون سبب التضييق في ذلك ان ملوك المملكة الموجود فيها ذلك يرون رعاياهم ليسوا اهلا لهذه الرخصة ، لعدم استكمال التربية الاهلية فيها ، وانهم ينتظرون تقدم التربية وصلاح حال الاهالى ليبيحوا لهم رخصة اتساع الدوائر الزراعية والتجارية والصناعية ، لأن تهذيب الاهالى وتحسين أحوالهم يكتب عقولهم الرشد والتصرف في العمليات المتشعة .

قال بعض الحكماء : ان سمحتم لي بتحسين التربية الزمت نفسى لكم باصلاح احوال العالم بأسره ، فان العقول البشرية متى بلغت مبلغا عظيما في فهم المعرف المعاشرة اتسعت في المعاملات ، وتشبّثت باختراع ما يعنى على المنافع العمومية من الادوات والآلات ، واهتم اهل العصر ب تمامهم في مزاولة الاعمال والاشغال ، وصار للماهرين في الفلاحة والصناعة والتجارة اقتدار على تدوين كتابها وتقبيدهم فيها جميع التجديفات ، فبهذا تجدد بالمعرف الماكاسب الوافرة ، والمفازم المتکاثرة يوما فيوما ، فالمملكة التي تقدم فيها علم الادارة والاقتصاد في المصارف ، وحصلوا في ذلك على التواعد المكينة والاصول المتينة ، فليس عجيا ان فازوا بمنافعها العمومية ، وثرانها الحالية والمالية ، ولا يبعد ان من نافسهم ، من بجوارهم ، في هذه العلوم ، وعرف اصولها وفروعها ، تجدد عنده هذه المنافع بعينها ، وبالمارسة والمزاولة لا تزال تأخذ في الاتساع ، حسب الامكان ، ويقارن الحرية : التسوية ، وكلاهما ملائم للعدل والاحسان .

[المساواة]

واما التسوية بين اهالي الجماعة ، فهي صفة طبيعية في الانسان ، تجعله في جميع الحقوق البلدية كاخوانه ، وهي جامعة للحرية الدينية والحرية الملكية ، وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم ، وكل منهم ذو عينين وأذنين ويددين وشم وذوق وليس ، وكل منهم يحتاج الى المعاش ، فبهذا كانوا جميعا في مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد في استعمال المواد التي تصون حياتهم ، فهم مستوون في ذلك ، لا رجحان لبعضهم على بعض في ميزان العيشة .

ولكن هذا التساوي بينهم ، ان امعنا النظر فيه ، وجدناه امرا نسبيا لا حقيقة ، لأن الحكمة الالهية ميزت بعضهم على بعض ازا ، حيث منحت البعض او صافا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر ، فبهذا تباينوا في الصفات المعنوية ، بل وفي الصفات الطبيعية ، كقوه البدن وضعفه ، ومع ان الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق فقد جعلهم في الاحكام مستوين ، لا فرق بين الشريف والمشروف والرئيس والرؤس ، كما امرت به ودللت عليه سائر الكتب المنزلة على انبائائه ، عليهم الصلاة والسلام فليس للتسوية معنى آخر الا اشتراكم في الاحكام بأن يكونوا فيها على حد سواء ، فحيث اشتركون واستووا في الصفات الطبيعية فلا يمكن ان ترفع هذه التسوية في الاحكام الوضعية ، فمن حيث ثبت انهم مستوون في الحقوق انتاج ذلك انهم اذا وقعوا جميعا في خطر عام وجب على سائرهم ان يتعاونوا في ازالة هذا الخطر ، لما في ازالته من منفعتهم العمومية ، فإذا وقعت لوطفهم حادث وجب عليهم ان يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعنوية ، كأنهم مجردون عنها بالكلية ، ويرجموا الى صفة التسوية ، وينسوا كل مزية ، فبهذا تكون التسوية ملزمة للحرية

عند انطواء راية الحرب ولوائه ، وينضم الى ذلك صفة ثالثة : وهي محافظتهم على
بقاء الهدء والراحة العامة في وطنهم ، ومنع الاختلال الداخلي ، وجسم عرق الفتنة ،
فكل ملة تتخذ اصل قانونها التسوية من اصل الفطرة في الحقوق ، ويؤمنون على
مراقبة هذه التسوية ، فان حرفيتهم توضع على اساس متين ، وتكون مملكتهم
راسخة القواعد ، لا يعتريها الخلل من بين يديها ولا من خلفها ، فبهذا تقوى على
المدافعة عن بلادها ، وتحمي عن حقيقة وطنها ، وتدفع جور من جاوده من المالك ،
فهذه هي الامة القوية الشوكة في الداخل والخارج ، مهابة عند الجميع .

**فالتسوية في الحقوق ليست الا عبارة عن تمكן الانسان شرعاً من فعل او نيل
او منع جميع ما يمكن لسواء من اخوانه ان يفعله او يناله او يمنع منه شرعاً ، فكل
انسان يتصرف في املاكه وحقوقه تصرفاً كتصرف الآخرين اي ما كانت في المملكة
صفته ، تصرف او ضعف ، فهو مساواً للجميع في تصرفاته . ومن البديهي ان استواء
الانسان في حقوقه مع غيره يستلزم استواه مع ذلك الغير في الواجبات التي يجب
للناس بعضهم على بعض ، لأن التسوية في الحقوق ملزمة للتسوية في الواجبات ،
نکما ان الانسان يطلب ان يستوفي ما هو له فعليه ان يؤدي ما عليه ، فالتسوية
عبارة عن تكليف جميع اهالي المملكة ، بدون فرق بينهم ، بان يفوا بما يجب لبعضهم
على بعض ، فالطالب هو ذو الحق ، والمطلوب هو ذو الواجب ، فالواجبات دائمة
ملزمة للحقوق لا تنفك عنها . وعلى كل حال فالتكاليف الشرعية والسياسية التي
عليها مدار نظام العالم مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع
والشبهات ، لأن الشريعة والسياسة مبنتان على الحكمة المعقولة لنا او التعبدية
العقل او يقبحه الا اذا ورد الشرع بتحسينه او تقييده .**

[العدل]

**لمن ادى واجباته واستوفى حقه من غيره ، وكان دأبه ذلك ، اتصف بصفة
العدل ، والعدل صفة تبعث الانسان على الاستقامة في اقواله وافعاله ، وان يتصف
لنفسه ولغيره حتى جعله بعض الحكماء فضيلة قاعدة لجميع الفضائل ، وانه
اساس الجمعية التأسيسية والعمران والتمدن ، فهو اصل عمارة المالك التي لا يتم
حسن تدبيرها الا به ، وجميع ماعدا العدل من الفضائل متفرع منه ، وكالصفة من
صفاته ، وانما يسمى باسم خاص كالشرف ، والمروءة ، والتقوى ، ومحبة الوطن ،
وخلوص القلب ، وصفاء الباطن ، واتکرم ، وتهذيب الاخلاق ، والتواضع ، وما
ماثل ذلك ، فهذه كلها نتائج العدل . ثم ان الحديث الشريف ، وهو قوله ، صلى
الله عليه وسلم : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . يتضمن
الدرجة العليا في العدل ، وهو موافق لما نطقت به حكم الحكماء وشائع الانبياء قبل
الاسلام ، فقد حسنة الشرع والطبع ، وان كان تحسين النوميس الطبيعية لا يعتمد
بها الا اذا قرره الشارع .**

الفصل السابع

(في الأحكام الطبيعية المستندة ، قبل التشريع ، إلى العقل)

الحكم الطبيعي ، المستند إلى العقل ، هو في اصله ، قبل تشرع الشرائع عليه ، مدار العالم ، ومجرى قوامه ، وهو النظام الذي وضعته الحكمة الإلهية في القوى البشرية ، وجعلته مشتركة بينهم ، مستوياً فيهم ، ليميزوا فيه المباحثات ، بدون نظر لبلد دون آخر ، ولا لقوانين مملكة دون ما عداها .

ولما كانت أعمال كل نوع من أنواع المخلوقات ، وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع ، منقادة لنواميس طبيعية عمومية ، خصته بها الحكمة الإلهية ، كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص ، وهذه النواميس الطبيعية التي خصت بها العالم القدرة الإلهية عامة للإنسان وغيره ، فمنها كون الشمس تضيء على سطح الأرض ، ويسقط نورها على التدرج في سيرها ، وإن وجودها على البسيطة يستلزم النور والحرارة ، وإن الحرارة يلزمها سخونة الماء ، ويكون عنها الآخرة التي تتصاعد في الجو ، ويكون عنها السحاب الذي يستحيل إلى الأمطار والثلج والبرد ، ويتسرب عن ذلك مياه العيون والأنهار والجداول ، وليس لهذه الأشياء تأثير في بعضها ، وإنما هي أسباب عادلة ، والتاثير إنما هو للحليم القادر ، وتسميتها طبيعية عند الحكماء إنما هو نظر للظاهر :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

[الفاعل الحقيقي هو الله]

فمن هذه الأسباب العادلة حقيقة ، الطبيعية ظاهراً ، إن الماء يجري من أعلى إلى أسفل ، ويحاول أن يمتد ويستوي في أنهاته تسوية واحدة ، لا يعلو بعض أجزائه على بعض ، ويكون انقل من الهواء . ومن ذلك أن جميع الأجسام التي في الجو

تميل للسقوط على الأرض ، ما عدا النار فانها تميل للصعود نحو السماء ، وانها تضر بالمعادن والحيوانات والنبات ، تخنق في بعض الاحوال بعض الحيوانات وتقتلها ، وان بعض عصارات النباتات وبعض المعادن تضر بالحيوان وتقتله ، وبالجملة مالاسباب العاديّة المسمّاة عند الحكماء بالنوميس الطبيعية كثيرة كثرة بالغة .

[دور الاسباب]

فينبغي للانسان ان لا يتجرى على هذه الاسباب ويتعذر حدودها ، حيث ان المسسبب الناتجة عنها منتظمة محققة ، ولا نظر الى خرق العادة التي لا تكون الا نحو كرامة لولي ، لأن كل ما كانت معجزة لبني كانت كرامة لولي ، (١) لا فرق بينهما الا التحدى بالنبوة .

فعلى الانسان ان يطبق اعماله على هذه الاسباب التي تقدم ذكرها ، ويتمسك بها ، والا عوقب عقاباً أهلاً لخالفة خالق هذه الاسباب . مثلاً اذا اراد الانسان ان يبصر المברرات في ظلمة الليل الحالك ، وحاول ذلك كل المحاولة ، او خالف ما تتضمنه الفصول الزمانية ، واستسهل ما يتسبب عنها ، او ناقض خواص العناصر ، لأن اراد ان يعيش في قرار الماء او يمس النار بدون ان يحترق او ان يشرب السم بدون ان يموت ، فانه يجازى على افعاله في الحياة الدنيا بقدر مخالفته للاحسب العاديّة ، بأن يغرق او يحترق او يموت ، بخلاف ما اذا رأى هذه

(١) والمولى من استولى على طلعة مولاه كاستواء السفينة اذا طلب لها الريح ، فيجب احترام الاولياء وعدم اهانتهم . روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، انه قال « يقول الله تعالى : من اهان لي ولیا فقد اهنتني بالحرارۃ » . وقد نطق القرآن بكرامات الاولياء ، ففيه قصة اصحاب الكهف ، قال تعالى : (اذ اوى المفہی الى الكهف) الآيات وقصة مريم ، قال تعالى : (كلما دخل عليها زکريا الحراب وجد عندها رزقا) ، قال يا مريم انى لك هذا ، قالت : هو من عند الله) قال المفسرون : كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهه الشتاء في الصيف ، وقد اتني عليهم المولى تبارك وتعالى بقوله (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الآية ، وقال العلامة اللقاني ، في الجوهرة :

واثبتن للاولياء الكرامة ومن نفاهما انبذن كلامه

فمنهم من يكون ستره بالاسباب ، ومنهم من يكون ستره بظهور العزة والسطوة والقهر على حسب ما يتجلى الحق تعالى لقلبه ، فيقول الناس حاشا ان يكون هذا ولیا لله تعالى وهو في هذه النفس ، وذلك لأن الحق تعالى اذا تجلى في قلب العبد بصفة القهر كان قاهرا ، او بصفة الانتقام كان منقما ، او بصفة الرحمة والشفقة كان رحيمًا مشفقا ، وهكذا ، ولم يزل في كل عصر واوان اولياء علماء . [الطهطاوي]

الاسباب العالم بخواصها على قدر الامكان فانه يصون نفسه على قدر الامكان ، حيث هي موضوعة بالحكمة الالهية لحفظ والصون والاسعاف والاسعاد ، الى . غير ذلك .

واغلب هذه النوميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الاحكام الشرعية ، فهي فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الانسان ، وجعلها ملزمة له في الوجود ، فكأنها قالب له نسجت على منواله وطبعت على مثاله ، وكأنما هي سطرت في لوح مؤاذه بالهام الهي بدون واسطة ، ثم جاءت بعدها شرائع الانبياء بالواسطة وبالكتب التي لا يأتياها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الامم والملل ، وعليها في ازمان الفترة تأسست قوانين الحكام الاول وقدماء الدول ، وحصل منها الارشاد الى طريق المعاش في الازمنة الخالية ، كما ظهر منها التوصل الى نوع من انتظام الجمعيات التأسيسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان ، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشري حيث هداهم لعائشهم بظهور حكماء منهم يقتنون القوانين المدنية ، لاسيما ، الضرورية ، لحفظ المال والنفس والنسل ، وهذا الاخير هو حكمة عظيمة في الفطرة التي فطر الناس عليها ، من تأييده بازدواج النساء والرجال ، الذي حكم الطبع والشرع بحله ، وحث عليه شرع كل ملة من الملل .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان خلق النساء والرجال من نفس واحدة ، ليسكن بعضهم الى بعض ، ومع ذلك فجعل النساء راس الشهوات ، التي هي النساء والبنون والذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث في قوله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث) (١) وذلك لتقدم النساء في قلوب الرجال على جميعها ، وكانت عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، تقول : من شققنا ان الله سبحانه وتعالى قدمنا حين ذكر الشهوات . وقال تعالى : (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون) (٢) . وروي ان رجلا اتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، الرجل يتزوج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه ، فلا يكون الا ليلة حتى لا يكون شيء احب اليه منها واليه منه ! فقال صلى الله عليه وسلم : « تلك الفتنة الله » ، وتلا قوله سبحانه وتعالى : (وجعل بينكم مودة ورحمة) ، وروى البخاري ، عن اسامة بن زيد ، قال : قال رسول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ما تركت بعد فتنة اضر على الرجال من النساء . وروى مسلم عن

(١) آل عمران : ١٤ .

(٢) الزور : ٢١ .

ابي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : ان الدنيا حلوة خضراء ، وان الله
مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الله ، واتقوا النساء ، فان فتنة بنى
اسرائيل كانت في النساء .

ومع ان النساء رأس الشهوات ، كجا تقدم ، فهن في الحقيقة ، جعلهن الله ،
سبحانه وتعالى ، لسعادة الرجال ، حيث اودع في قلوب الرجال حب النساء وفي
النساء حب الرجال ، للاتفاق بينهما ، والتمتع بما احله الله سبحانه وتعالى من
الزواج او التسری ، وما يتولد عن التمتع من الذرية والنسل الذي عليه مدار
العمران وبقاء الانسان والنظام العمومي ، كما سيأتي بيانه في الباب الآتي .